

د. عصاد كريم الراوي
المرحلة العائمة
المادة / تاريخ الدولة العثمانية
عنوان المحاضرة (الخزانة العثمانية)

كما انتنا لا نجد ما يفيد عن مالية الدولة حتى نهاية القرن الخامس عشر، ويمكننا ان نتكلّم عن ازدواجية الخزانة في هذه الفترة. هذه الازدواجية التي استمرت بعد ذلك ايضاً.

ازدواجية الخزانة

مع انتنا نفتقد المعلومات عن دخل الدولة ومصروفها، إلا انتنا عثرنا على كشف بموجبه الخزانة الخاصة او الخزانة الداخلية في عهد محمد الفاتح وفي عهد بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) وسلیمان الاول (١٥١٢-١٥١٨ م)^(١) ودخل هذه الخزانة ومصروفها لفترات في عهد سليمان القانوني (١٥٦٦ - ١٥٩٦ م)^(٢).

وكان السلطان على ما يظهر يأخذ بعض اندواع دخل الدولة الى خزانة خاصة ربما لدفع الطوارئ وسد نفقات عارضة وغير متوقعة. وكانت هذه الخزانة في القسم الداخلي من القصر، على عهد محمد الفاتح واخلاقه، أي في القسم المحرم على غير العائلة السلطانية. فلذلك كان يطلق عليها اسم «الخزانة الداخلية» أو (الخزانة الجوانية) (اندون خزينة سي) بتعبير فارسي و «ایم خزینه» بتعبير تركي) ولا يدخلها ولا يخرج منها شيء الا بإذن السلطان.

والخزانة الثانية، كانت في مكان يجاور الديوان، ومقاتيحها بيد الدفتر دار، والصرف منها منوط بالصدر الاعظم. فبالنسبة للأولى كانت هذه في مكان يصل اليه رجال الدولة، في الباحة الوسطى للقصر (قصر طوبقيپوسو متحف اليوم). ولذا تعتبر «الخزانة الخارجية او البرانية» (خزينة يبون بالفارسية وطيش خزنة بالتركية). ودخل الخزانة ومصاريفها تشكّل ميزانية الدولة التقديمة. وكان الوزير الاعظم والدفتر دار اذا أعياماً، وفي جميع حرج، يستقرضان من السلطان، من مبالغ الخزانة الداخلية، باسم الخزانة الخارجية. ويعيدان القرض عند تسر المال. فالخزانة الداخلية على هذا الوضع هي «خزانة احتياطية» تقوم احياناً بالخدمة التي تقوم بها البنوك المركزية حالياً.

ومن خزانة محمد الفاتح الداخليّة حسب كشف يعود لسنة ١٤٧٦ هـ (١٤٨١ م)
٢,١٦٠,٠٠٠ دينار مسلمين ^(٣) عثمانيون مدقاري وجري ومملوكي و ١٤٨,٢٠٠ حمس (دينار) «حشت» من أصل مجهول، وما يعادل ٢٤٢,٢٨٩,٠٠٠ اقجة من النقد الفضي العثماني^(٤). و ١,٢٨٨,٨٨٠ ديناراً حسب كشف أول و ١,٨٨٢,٨٠٠ دينار ما بين

Hall Sahiloglu: The role of international monetary and metal movements in ottoman Monetary history (1300-17-^(١) 50), in Precious Metals In the Later Medieval and Early Modern Worlds, Ed. by J.I. Richards, Carolina Acad. Press, pp. 293, 298 and 297.

افرنجي وسلطاني واشرفي مملوكي في عهد بايزيد الثاني حسب كشف متاخر، أما الكشف الذي يعود لعهد سليم الأول (١٥٨٢، ٣٣٦) دينارا فتبلغ قيمته ٨٦,٧٤٧,٦٢١ آقجة من الذهب وما يعادل ٤٨,٣٥٧,٤٤٠ آقجة من الفضة^(١).

مالية الدولة العثمانية في دور ازدهارها في القرنين السادس عشر والسابع عشر جاء القرن السادس عشر والدولة العثمانية في طور النمو، واتساع الرقة، وقد ضمت إليها أراضي الدولة المملوكية، واتسعت فتح الاناضول والعراق مع توسيع حدودها في البلقان حتى أواسط أوروبا. فجناحها الأوروبي مسيحي، وجناحها الآسيوي الاقريقي مسلم عربي في الحدود الثانية، وتركي في القلب. وسعت الامبراطورية إلى تركيس قرید للمجتمع العثماني. وقد بقي النظام المالي الذي ورثته عن القرنين السابقيين على حاله. ضرائب شرعية ورسوم عرقية مالوقة في الاقتصاد الزراعي للبلاد، وتكليف ديوانية أو شاقة متعددة تعينها الحاجة والظروف. وتحمّلت الدولة عقبات مالية تنازع في أوقات معينة وبخاصة في سنتي الأزيد لاف^(٢)، ولكن الازمات بالرغم من أنها أدت إلى الاطاحة بالوزراء وقتل بعض رجال الدولة وخلع وختنق بعض السلاطين فإن النظام المالي ظل على حاله دون تبدل جذري حتى نهاية القرن السابع عشر وبداية عهد الانحطاط.

ولما كان الاحصاء هو أساس تقدير الدخل السنوي وتخصمه، والتشكيلات المالية ما تزال على حالها، إلا أن دوائر المالية توسيع، وأزيد عدد الدفتر دارية. ولكن المسؤول بقي هو الدفتر دار الأول والآخرون (٢-٢) مساعدون له. ولكن رقعة الامبراطورية الواسعة وأزيد حجم العمل مع امتناع وجود حل لمحاسبة أوسع في العاصمة أدت إلى حل هو من نوع الحل الذي أدى إلى التيمار. إن تعدد توسيع التشكيلات المالية في العاصمة أفضى إلى تأسيس تشكيلات مالية أو «دفتر داريات» ثانوية في الولايات على غرار الدفتر داريات التي في العاصمة.

الدفتر داريات المحلية

بقيت المحاسبة المركزية تنظر في حسابات ولاية الاناضول وولاية روم إيلي (روملي)
(البلقان تقريباً) رأساً. لأن الولايات كانت تشكلان نواة الامبراطورية. أما الولايات

(١) متحف طوبقىوسراي في استانبول دفتر رقم ١٩٩٢.

(٢) ساحلي اوغلي، خليل: سنتي الأزيد لاف (آذنات الامبراطورية العثمانية المالية)، ١٧٧-١٤٣.

الجديدة فقد تركت محاسباتها للدفتر دار الذي يعين عليها. وهذا خفف من عبء المحاسبة المركبة، وستقتصر في ما يلي على دراسة المحاسبة المركبة وميزانيات الدولة وإن تتعرض للميزانيات المحلية إلا بقدر ما يدخل منها في الميزانية العامة للدولة.

ونذكر من الولايات التي كانت لها ميزانيات خاصة، وكان فيها دفتر دار يشرف على جياباتها ومحاسباتها: ولاية قرمان وولاية ديار بكر وولاية ارضروم وولاية الروم (أي توقاد وامايسيا) وولاية وان في الاناضول، كما كان في كل من ولاية تبريز وكتمة وشيروان في الفترة التي بقيت فيها هذه الولايات في الحكم العثماني، في نهاية القرن السادس عشر، وكان في ولاية بغداد والبصرة والاحساء في العراق دفتر دار وكان لكل منها ميزانيات محلية مستقلة. وكان لولاية حلب وطرابلس والشام في بلاد الشام أيضاً ميزانيات محلية. وتدخل في عداد ما سبق كل من ولاية اليمن ومصر وطرابلس وتونس والجزائر، ولكن الولايات الثلاث الأخيرة تكاد تكون شبه مستقلة اعتباراً من القرن السابع عشر، لا تتدخل الإدارة المركزية في شؤونها المالية.

ونذكر من الولايات التي تعد ميزانياتها المحلية الخاصة في القسم الأوروبي للامبراطورية: بوسنة وبيلغراد وبودين (عاصمة المجر) وبطمسوار، وكان لجزيرة كريز ولولاية قبرص ميزانياتها المحلية أيضاً.

وتتلخص مهمة دفتر دار الولاية بجيابية ما تتصدّى عليه دفاتر الاحصاء من أموال، وارسال ما يتبقى منها بعد المصرف المحلي المعين والمحدد سلفاً، إلى الخزانة المركزية، ولا يجوز لدفتر دار الولاية أن يتصرف بمال الجيابيات على رايه، ويضطر لأن يستاذن الديوان كلما اعترض مصروف جديد وغير معتمد، ولا بد له من فرمان خاص ليقوم بالصرف الطارئ، وكل دفتر دار مسؤول عن ما يجبه ويصرف طيلة مدة خدمته.

ويظل في الخدمة ما زال الديوان راضياً عنه، فإن أعطيت وظيفته لغيره، يجب عليه تنظيم ميزانية الولاية لزمن ماموريته، وإن كانت لا تبلغ السنة، لا براء ذمته، ونحن نجد في الارشيف ميزانيات ولايات لازمنة تختلف اختلافاً كبيراً: منها ما هي لأقل أو أكثر من شهر ومنها ما هي لأكثر من سنة، وقل ما نجد ميزانية ولاية لستة كاملة. وبهذا تمتاز ميزانيات الولايات عن ميزانيات الدولة، إذ إن ميزانيات الدولة في الغالب كانت ميزانيات سنة كاملة، سنة شمسية، حتى أوائل القرن السابع عشر، وأصبحت سنة هلالية هجرية فيما بعد. وكانت السنة المالية الشمسية تبدأ بالنوروز، والنوروز هو الحادي عشر من آذار (مارس) في التقويم الجولياني، و ٢١ آذار في التقويم الغريغوري.

وبما ان تصحيح التقويم الجولياني حدث في ١٥٨٢ م، يعتبر التوروز بعدها ٢١ اذار. تبعث الولايات بما يبقى من مال الجبايات بعد المصرف المحلي كما سبق أن ذكرناه. ولكن بعض الولايات التي تقع على الحدود كبيودين في المجر وكالبصرة وبغداد في العراق كان في ميزانياتها عجز دائم بسبب كثرة الجندي فيها. وكان حاصل جباياتها لا يكفي لنفقات الجندي. فلهذا كانت العاصمة تبعث مساعدات من الخزانة المركبة، او تأمر دفتردار احد الولايات المجاورة، كديار بكر او حلب بارسال المساعدات اللازمة اليها.

التشكيلات المالية المركزية

عشر حتى اليوم على خمس ميزانيات من ميزانيات القرن السادس عشر، نشر الاستاذ عمر لطفي بارقان ثلاثة منها ونشر الباحث واحدة منها، ولدى الباحث ميزانية اخرى جاهزة سوف تنشر قريبا. وتحوي هذه الميزانيات اسماء الدفتردارين الذين شاركوا في إعدادها:-

جدول رقم (٣)

الميزانية	الدفتردار شرق الاول	الدفتردار الثاني	الدفتردار الاول	ولاية الاناضول	سنة
١٥٢٤	اسكندر جلبي	عبدالسلام جلبي	محمد جلبي	-	
١٥٤٧	عبدى جلبي افندى	خير الدين بك افندى	اسكندر بك افندى	-	
١٥٦٧	حسن جلبي	درويش جلبي	عبد القفور جلبي	احمد جلبي	
١٥٨١	ابراهيم جلبي افندى	محمود جلبي افندى	محبى جلبي افندى	-	

اما ميزانية ١٥٢٧ فانه لا يوجد فيها اسماء من اشرف على اعدادها من الدفتردارين. ومع ذلك فان في ملحقها قائمة باسماء الموظفين في المالية ومقدار ما يتلقاون من أجور يوميا. ففي القائمة اسماء سبعة من الكتاب تحضر الديوان من قبل الدفتردارية تتفاوت أجورهم بين ٣٢ آقجة و ٥ آقجات يوميا. ويبلغ عدد كتاب الخزانة الذين هم

من غير تحصيل، فيذكر الأموال وتبين كم كيسا هي، دون ان يتعرض لما تحويه من نقد عددا، وفي روزنامجه ايضا يذكر ما يدخل وما يخرج من الخزانة من اعيان كانوا واقمشة وخلع.

التشريفاتي : يمسك روزنامجه ايضا ويسجل فيها ما يرد الى الخزانة من هدايا (بيش كش) في المناسبات كمثل السفراء وتقبيل يد السلطان من قبل الامراء عند ذهابهم لمقبر حكمهم وتقديمهم الهدايا بهذه المناسبة او الخلع التي يكتسونها وما إلى ذلك.

التسليماتي : يسجل في دفتره قيود الدفع عند تسلم صاحب الحق ما يستحقه من الخزانة.

ولا بد من أن يكون لكل من هؤلاء أكثر من شاكرد، (أي تلميذ أو أجير يتدرب عنده) وذلك حسب حجم العمل في دائنته.
وفي الولاية تشكيلات مصقرة للتشكيلات المركبة تتلخص في دفتر دار، وروزنامي مقاطعجي وعدة كتاب.

١ - ميزانيات الدولة العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

الميزانية

للميزانية معنى في المصطلح الحديث قد لا ينطبق تماما على «محاسبة واردات وبمصارف الخزانة العامة» او «محاسبة إجمال مصروفات وآخراجات» الدولة العثمانية. إذ ان الميزانية في المصطلح الحديث هي مشروع حكومي، مصروفه مقدر ومعروض على مجلس الامة ليصوت عليه، ويقبل الجبايات والقروض التي تتحقق المشروع. بينما «محاسبة» او «مجمل محاسبة ايراد ومصروف الخزانة العامة» هي النتيجة. أي الجباية التي اكتملت والمصروف الذي تحقق. والميزانية مشروع يعرض لول السنة المالية. أما «محاسبة الوارد والمصروف» فهي خلاصة نتيجة اعمال السنة المعروضة في نهايتها على السلطان. وكان الدفتر دار عندما يقدمها ويقرأها بحضور السلطان، يذكر بالنسبة للقرن السادس عشر، ارقام الدخل والمصروف للعام السابق ويقابل ارقام الستين فيشير الى الزيادة او التحسين ومقدار ذلك لكل باب من ابواب الدخل او المصروف. فـ «محاسبة